

مسؤوليتنا في بناء الحياة



ما معنى أن نوجد في كل هذه العناصر التي تمثل حركة هذا الوجود؟ هل لنكون فقاعة تنتفخ وتنتفخ ثم تنفجر ولا تترك وراءها شيئاً، أو أن وجودنا في إرادة الله، يعني أن نحرك القيمة في معنى هذه الإنسانية العميقة التي تتمظهر فينا عقلاً يفجر المعرفة، ثم يتحرر كويمارع ويبحث ويكتشف ويدخل في ساحة صراع تتميز بأنّها في وعي العقل حركة صراع لا يملك إلا المحبة، لأن المعرفة مهما انفتحت، ومهما اختلفت، فإنّها لا بد أن تنطلق من محبة؛ محبة العقل.. والعقل عندما يحب يبدع، والعقل عندما يحب ينتج، والعقل عندما يحب يضع القاعدة لبناء الحياة على الأفضل!

مسؤوليتنا تجاه العقل

لذلك، فإن هذا العقل الذي أعطانا إياه الله، هو من أجل أن نعطي الحياة عقلاً، وتلك مسؤوليتنا.. مسؤوليتنا في هذا الوجود الذي يعطينا الكثير ويريد منّا أن نعطي.. مسؤوليتنا هي أن نعقلن هذا العقل، ألا نسمح لهذا العقل بأن تزحف إليه كل الطحالب، وأن تزحف إليه كل عناصر التخلّف، وأن يتحرر كالجهد ليأخذ معنى العلم في داخله.. مسؤوليتنا أن نعقلن العقل، وأن نجعل العقل طاقة

تحرّك كما الروح تعطي الحياة، ليعطي العقل الحياة معنى المعرفة الحيّة.

وهكذا أرادنا أن عندما خلق لنا قلباً ينبض ويخفق وينفتح هنا وهناك، قلباً يبكي، وليس بكأوه سقوطاً، ولكن بكاءه يمثل معنى الإنسانية في الدموع، وقيمة الدموع عندما تتأنسن، أنّها تحتضن آلام المتألمين، وتحرّك في داخل وجودهم، من أجل أن تعطيتهم الراحة والطمأنينة، لا راحة التخدير الذي يتخدّرون به لينتفض الألم بكلّ قوّة، ولكن راحة الإحساس بالمشاركة الإنسانية التي تقوّي للمتألم معنى إنسانيته، لتجعله يثق بنفسه ويثق بالحياة.

كم من كلمات القلب النابض التي تحرّك في مواقع الطهارة وفي مواقع الصفاء، كم من كلمات هذا القلب التي استطاعت أن تعطي الناس الذين لا يثقون بأنفسهم ثقة، وأن تعطي الناس الذين يعيشون الضعف في حالة انهيار، قوّة روحية! لأنّ معنى أن تكون قوي الروح، قوي الإنسانية، هو أن تحسّ بوجودك، وأن تعرف كيف تحرّكه وتستثمره، لأنّ مشكلة فقدان ثقة الإنسان بإنسانيته، أنّها تُسقط الإنسان، وأنّها تخلق في داخله القلق والحيرة. ولذلك، فإنّك كلّما أعطيت الإنسان في محبّتك سكينّة وراحة وطمأنينة، أعطيتّه إحساساً بوجوده، وهبّأته ليكون عنصر إنتاج.

التخلّق بأخلاق

أعطانا قلباً من أجل أن نصنع منه الحبّ الإنساني الذي إذا تحرّك في الحياة، فإنّه لا يجد أيّ حاجز يحجزه عن إنسان آخر، لأنّ المسألة هي أنّ الحبّ ينطلق من القلب، فالله محبّة، وعندما تحرّك المحبّة من القلب صافية نقية طيّبة مطلقة، فأيّ معنى لأيّ حاجز؟!

المطلق لا حدود له، والحبّ الإلهي عندما يتأنسن، يأخذ شيئاً من معنى أخلاق القلب، وفي الحديث عندنا: «تخلّقوا بأخلاق الله». لذلك، كان الإمام عليّ (ع) يفكّر من خلال الحبّ الإلهي، عندما كان يقول لعامله مالك الأشتر: «فإنّ الناس صنفاً؛ إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق». أن تنطلق، فإذا رأيت الناس الذين يتّفقون معك في الفكر وفي الخطّ، أمكنك أن تحرّك معهم في عملية تكامل، من خلال وحدة الموقف، وعندما تجد هناك اختلافاً بينك وبين أحد في فكر أو اتجاه أو موقع، فكّر أنّ إنسانيّتك تحتضن إنسانيّتهم، كما أنّ إنسانيّتهم تحتضن إنسانيّتك.

بالإنسانية نحلّ مشاكلنا

من خلال إنسانيتنا، التي إذا انطلقت من داخل وجودنا ينبوعاً يتفجّر ويجري ويعطي الخصب والرخاء، يمكننا أن نحلّ مشاكلنا.

مشكلتنا أنّنا تركنا الإنسانية في معنى وجودنا تغور كما يغور ينبوع في متاهات الأرض، واستبدلنا بها وحشية سمينها حقدًا مقدّسًا، ولا أدري كيف تقترب القداسة من الحقد!

إنّها من الكلمات التي أرادت أن تصادر فينا معنى القداسة، حيث جعلنا الحقد مقدّسًا، والجهل مقدّسًا، والتخلّصُ مقدّسًا. كم قتلنا التخلّصُ باسم التقدم! وكم قتلنا الجهلُ باسم العلم! وكم قتلنا الوحشيةُ باسم القداسة!

مشكلتنا في هذه الفوضى من المفاهيم التي تتحرّك وتنطلق في حياتنا على أساس أنّها تمثّل القيمة، ولكنّها في الواقع ضدّ القيمة.

لذلك، عندما أعطانا الله هذا القلب، فللقلب مسؤوليته أن يحبّ الآخرين.. وأن تحبّ الآخرين، أن تلتقي معهم على نقاط اللقاء.. أن تحبّ الآخرين، أن تتحاور معهم في رحلة الوصول إلى الحقيقة.. أن تحبّ الآخرين، أن تستثير كلّ عناصر الخير فيهم لمصلحة معالجة عناصر الشرّ في داخلهم.

إذا أردتم أن تبغضوا، فعليكم أن لا تبغضوا الإنسان في ذاته، أبغضوا عمله.. أحبّوا الإنسان، حتى الإنسان المجرم، ولكن حاولوا أن تبغضوا جريمته.. إنّنا لا نريد أن نقتل الشرّير، ولكننا نريد أن نقتل شرّه، ولا نريد أن نُسقط الكافر، ولكننا نريد أن نسقط كفره..

حتى المستكبر الذي يعيش في الأرض فسادًا، إنّنا لا نفكّر في أن نسقطه كإنسان، كشعب، كحكومة، إنما نريد أن نسقط استكباره، فإذا ابتعد عن الاستكبار، أمكننا أن نعانقه عنق الإنسان الذي عاد إلى الخير وإلى التواصل بعد وقتٍ طويل.

الطاقة مسؤولية

وهكذا.. وجودنا، هو وجود العقل في حركة المعرفة، ووجود القلب في حركة الحبّ الإنساني، ووجود الطاقة؛ هذه الطاقة التي نملكها في وجودنا، والطاقة التي أنتجناها من خلال حركة الوجود، سواء كانت طاقة علم، أو طاقة جاه، أو طاقة خبرة، أو طاقة مال، أو أيّ نوع من أنواع الطاقة...

هذه الطاقة، ليست شرفاً نزهو به، ولكنّها مسؤولية نعيشها، وإِنا سوف يسألنا عندما نقف بين يديه كيف حرّكنا هذه الطاقة! وهذا ما جاء به الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع)، عندما كان يقول: «إنّ إِيّا لم ينعم على عبد نعمة إلاّ وقد ألزمه فيها الحجّة من إِيّا، فمن منّ إِيّا عليه فجعله قوياّ، فحجّته عليه القيام بما كلّّفه، واحتمال مَنْ هو دونه ممّن هو أضعف منه، ومَنْ منّ إِيّا عليه فجعله موسعاّ عليه، فحجّته عليه ماله، ثمّ تعاوده الفقراء بعد بنوافله، ومَنْ منّ إِيّا عليه فجعله شريفاّ في بيته، جميلاّ في صورته، فحجّته عليه أن يحمّد إِيّا تعالى على ذلك، وأن لا يتناول على غيره، فيمنع حقوق الضعفاء لحال شرفه وجماله».

طاقتك مسؤوليتك؛ أن تنمّيها وأن تكبّرّها، وأن تجعلها طاقة الإنتاج وطاقة الإبداع، وأن تحرّكها في كلّ موقع من مواقع حاجات الإنسان في الحياة.

لصوصٌ من نوع آخر

إنّنا نتحدّث دائماً عن الأمّة، عن المجتمع، عن الشعب؛ هل هناك شيء معلّق في الهواء اسمه الأمّة؟ هل هناك شيء معلّق في الهواء اسمه المجتمع؟ مَنْ الأمّة؟ مَنْ المجتمع؟ هي أنا وأنت والآخرين. إذا كانت المسألة هكذا، فمعنى ذلك أنّ في كلّ مذّا شيئاً تملكه الأمّة؛ علمك هو جزء من علم الأمّة، وعقلك كذلك، وخبرتك كذلك، وطاقتك كذلك... عندما تمنع الأمّة من الطاقة الموجودة فيك، فأنت لصوصٌ تسرق الأمّة طاقتها.. الأمّة تحتاج إلى علمك، لأنّ علمك ليس لك، علمك جزء من علم الأمّة، وعقلك ليس لك وحدك، وخبرتك ليست لك وحدك... لذلك، أنت تسرق، ولكن ليس هناك قانون يمكن أن يحاكمك على هذه السرقة. وكم ينطلق اللصوص؛ لصوص الحرّية، ولصوص الحقّ، ولصوص الأوطان، كم ينطلقون في الحياة من دون أن تكون هناك مادّة قانونية تحدّد عقوباتهم! لأنّ المسألة هي كما قال النبيّ (ص): «إنّما أهلك الذين قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ». وأيم إِيّا، لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرت لقطعت يدها».

لذلك، نحن في الحياة هنا عمّال إِيّا (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا حَافِظًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق/ 6). وفي ضوء ذلك، لا بدّ أن نعرف أصول العمل، ولا بدّ أن نعرف ساعات العمل، ولا بدّ أن نتحمّل مسؤولية العمل، ولا بدّ أن نراقب نتائج العمل، ولا بدّ أن نرصد كيف تتحقّق أهداف العمل.

مسؤولية بناء الحياة

لذلك، كما قلنا في البداية، إنَّنا في هذا الوجود الإنساني الكامن في داخل شخصيتنا وذواتنا، نتحمَّل مسؤولية أن نبني الحياة، وأن نبني الإنسان؛ أن نبني الإنسان فينا، وأن نبني الإنسان في الآخر، حتى نستطيع أن نحقِّق شيئاً للحياة.. أن لا نترك الحياة، إلَّا بعد أن نترك شيئاً فيها مدًّا؛ أن يموت الجسد، ولكن تبقى عصارة العقل التي كانت فيه، وعصارة القلب التي كانت فيه، وعصارة الطاقة التي كانت فيه، أن تبقى في الحياة.

إنَّكم تنتجون الكثير من العصير، يذهب القشر ويبقى العصير، ولكنَّ عصيراً واحداً لا نهتمُّ به؛ عصير مؤنة السنة، ولكن هذا من مؤنة الحياة، عصير العمر؛ أن تعتصر عمرك، أن تعتصر كلَّ دقيقة، كلَّ ثانية..

مشكلتنا في هذا الشرق، أنَّ تعابيرنا الأدبية تقول نريد أن نقطِّع الوقت، أن نضيِّع الوقت، أن نقتل الوقت... أليس كذلك؟ ولكن القضية هي أن نربح الوقت، أن نعتصره.. هذا الإحساس بالزمن، أن تحسَّ بالدقيقة التي أنت فيها كيف تملؤها تفكيراً وحركةً وحياةً، عند ذلك، سوف لن تضيِّع أيَّ دقيقة، لأنَّ هناك إحساساً بمعنى الدقيقة في عمرك، ومعنى عمرك في حركة الحياة.